

ذكرى النفي الى مالطة

١٨٤٠-١٩٤٠

بنلم نجيب الدحداح

« وفي الصباح توجه ، ترافقه أسرته وحاشيته كثيرة ، الى صيدا . فصلها في الحادي عشر ووضع نفسه تحت تصرف الكابيتان باركلي ، قائد الموقع . وفي اليوم التالي نُقل الامير وجميع مرافقيه ، عن امر الاميرال ستورفورد ، على ظهر الباخرة الانكليزية « سيكلوب » الى بيروت . ثم سافرت الباخرة ومضى الامير بشير يتيم في حوى الشعب البريطاني »^١

مكثنا نعل صحافي فرنسي ، منذ قرن كامل ، خبر انتقال الامير بشير الكبير الى مالطة في ١١-١٨ تشرين الاول سنة ١٨٤٠ . وقد جاء نفي الامير على اثر ثورة اهلية امتدتها ممثلو الدول الاوروبية العظمى بمساعدات جمة ، فكان الحادث سبباً لحوادث اخرى هامة كان لها التأثير الاكيد في توجيه مصيرنا . امأ نحن فزريد ان نستفيد من مرور مئة سنة على نفي الامير لنجمله محوراً لكلامنا في مقدماته ، وظروفه ، ونتائجها ، وكلها حافلة بما يفسر احوال لبنان الى يومنا هذا ، ويجعلنا نرداد ثقةً بمستقبله .



قلنا ان نفي الامير جسا . على اثر ثورة اهلية ؛ وسرى اسبابها ،
القمومات وحوادثها وميزاتها . ومن كلامنا في حوادتها يتبين لنا
دور السياسة الدولية فيها .

امأ الاسباب ، فتعود اصلاً الى اتفاق الامير بشير ومحمد علي ، وتصرف
القاتح المصري مع اللبنانيين . فقد ظل لبنان ، في مقاطعاته الاحلية على الاقل ،

(١) Baptistin Poujoulat, *Voyage dans l'Asie Mineure*. Paris, 1841, pp. 561-595

وفي الجبله الاخيرة تذكر ببارة نابوليون عندما استلم للحكومة البريطانية .

مستقلاً استقلالاً داخلياً مدة العهد العثماني ، يتولى الامر فيه امراء ميثقون عن انتخابات يقوم بها اصحاب الاقطاع . وكان السلطان العثماني في نظر الحكام اللبنانيين ، على نحو ما كان الامبراطور البيزنطي في نظر ملوك اوروبا الغربية ، صاحب سيادة اسمية يدفعون له الاموال للحصول على خلع تولي اصحابها صفة شرعية للحكم . ولم يكن الخلاف الدائم بين امرائنا ووزراء الدول العثمانية ليدور الا على امرين : مبلغ الاموال المترتب دفعها سنوياً للباب العالي ، وحدود لبنان الطبيعية . وكثيراً ما كان يقتصب الولاة المجاورون سهولنا الحسنة ومدتنا البحرية الكبرى . ولما تحالف الامير بشير سرّاً مع محمد علي ، في سنة ١٨٢٣ ، وعد الاخير بأن يكافئ اللبنانيين اذا انضموا الى جيوشه ، بإعادة مدنهم اليهم وبتعزيز استقلالهم . وكان من الطبيعي ان يأمل جدودنا ايضاً ان تُدبر قضية الضرائب لخير مصلحتهم .

وفي ٢ تشرين الثاني سنة ١٨٣١ هاجم ابراهيم باشا ، ابن محمد علي ، فلسطين . فتربّث الامير قليلاً في البدء ، ولم ينضم الى الفاتح المصري الا بعد سقوط عسكا ، في حزيران ١٨٣٢ ، وقد عرفها في عهد الجزائر سياً لعثرة يونانيرت . فاشترك اللبنانيون بعدئذ بفتح دمشق وسائر الاراضي السورية . وعلى اثر معاهدة كوتاهية ، في ٥ ايار ١٨٣٣ ، انصرف ابراهيم باشا الى تنظيم « الاقطار الشامية » . فقامت في وجه العراقيل والثورات في فلسطين (نيسان- ايلول ١٨٣٤) ، وبلاد التصيرية (تشرين الاول - كانون الاول ١٨٣٤) ، والاضطرابات في حلب وانطاكية الخ . وكان في قعر اكثرها فضل للجند اللبناني . فكيف كانت المكافأة وكيف حققت الآمال ؟

لم يبا ابراهيم باشا بكيان لبنان الخاص عندما وضع الضرائب على الاقطار التي اعترف له بالسيادة عليها في معاهدة كوتاهية . فاحتكرت منتوجات الارض والبهائم ، وسُخِرَت الافراد والجماعات ، واضطر كل فرد بلوغ السنة الرابعة عشرة من عمره ان يدفع رسماً جديداً مشهوراً باسم « الفرده » . وقد ضجّت جميع البلدان التي حكمها ابراهيم باشا من هذه الضريبة الاخيرة . فقال شاهد عيان ان لبنان « يدفع في العهد المصري ما يزيد بأربع عشرة مرة على الضرائب التي كان

يدفعها في عهد السلطان (العثماني) «^{١١}.

ثم اردف متكلماً عن الاهلين: «لقد سلّهم الاستبداد حساندهم المصفرة على رؤوس جبالهم ، وورقة التوت المنصوب في وديانهم ، واثيرون ، والتين والحجوز التي كانت ثروتهم في الماضي . ان الاستبداد يسك بهم ، ويجردهم ، وبدعهم عراة مثل صخور لبنان التي لم يعد ينبت عليها زهرة ، ولا خضرة ، هو يقتلهم كما يتلع نسر جبالهم لب الارز.»^{١٢}

وما سهل هذا الاستبداد الا على اثر تجريد ابناء لبنان من سلاحهم . وقد عمد ابراهيم باشا الى هذا التجريد بحيلة كانت اصلاً لشورر عدة توالت على اقوامنا ، اذ تظاهر بأن التدبير لا يتناول الا الدررز . فاضطر هولاء للتسليم . وبعد ذلك اعيدت الكرة على النصارى فسأروا بدورهم سلاحهم (١٨٣٥) . هي المكيدة الاولى في التفريق بين اللبنانيين ، وكان نجاحها تحريضاً على تكرارها . وفي تشرين الثاني سنة ١٨٣٧ شبت نار الفتنة في حوران ، فدعا الامير بشير رعاياه النصارى لنجدة الجيش المصري ، فلبوا الدعوة ، ساقطين في جبال المكيدة الثانية لرغام بمقاتلة دروز حوران انبأ . دروز لبنان . ولكن عاقبة ذلك التدخل كانت وخيبة على القائد المصري : فقد ابى اللبنانيون ، عند انتباه الفتنة المذكورة ، تسليم سلاحهم ، بل استفادوا من البنادق التي أعطيت لهم للقيام بثورة كانت اولى الضربات القاضية على فتوحات محمد علي .

— ولا يقتنا ان نقول ، قبل الحديث في حوادث الثورة وبزاتها ، ان شيئاً من عهد ابراهيم باشا بشأن مطالب جدودنا الوطنية لم يحدث . فان بيروت وحيدا وصور ، بعد ان وُضعت ، في ايلول ١٨٣٢ ، تحت سلطة الامير اللبناني ، اعيدت الى الحكم المصري المباشر بعد معاهدة كوتاهية —

ولما رأى محمد علي اجماع الدول الاوربية الكبرى (ما عدا فرنسا) على ماعدة الدولة العثمانية ، اخذ بتحسين المراتى الحاضرة لسيطرته وبطلب الجنود من الاراضي المحتلة . فأمر اولاً بتجريد اللبنانيين من سلاحهم ، واستخذ

B. Poujoulat, *op. cit.*, p. 561-595 ١١

Poujoulat, *op. cit.*, pp. 330-352 ١٢

من الاخطاء السياسية فطالبهم ايضاً بالضريبة المذكورة اعلاه «الفرده» اتدفع سلفاً عن سبع سنوات . فضجت البلاد بالناقين بحرّضهم رسل الدول الاجنبية ، وجرى اجتماع تمهيدي في دير القمر في ٢٧ ايار ١٨٤٠، ووجهت على اثره دعوة للعصيان الى جميع المقاطعات اللبنانية وماجا . في تلك الدعوة : «... لزم اننا اظهرنا العصاوة بعد الاتكال على الله واعتمدنا على محاربة هذه العداوة وتقديم الطاعة لسعادة افندينا الامير المظلم ... نرغب بان تكونوا كما نحن متيقظين سهرارين (سهرانين ؟) واعين لكل ما يجتهد نواحي بيروت ووجهة الشهاية وكلما جد عليكم شي عرفونا حالاً صعبة مخصوص وبجوله تعالى انتم الظافرون ولا يلزم نحكمكم على التيقظ كون هذا صالح عايده للجميع»^(١) وكان اول عمل قام به الثوار اللبنانيون ما ذكر في هذه الدعوة عن توجه فريق منهم نحو صيدا حيث كان يستعد سليمان باشا ، احد قواد ابراهيم باشا ، لمهاجمة الناقين اللبنانيين فظفر الثوار واستولوا على ١٨٠ بندقية للعدو . فكتب ابراهيم باشا الى اللبنانيين ينكر ان يكون في نية حكومته تجنيدهم ، ويشدد في النفي مقياً «بجاية عزيز رأس ايده الخديوي الاعظم ورأسه» . ثم يهدد الثائرين «بتدميرهم وتخريب اماكنهم كافة»^(٢) ان هم لم يرتدعوا عن مقاومته . فلم يرتدّ الوطنيون بل تقاطر فريق منهم الى كنيصة مار الياس في انطلياس ، واقسموا بأداء يكونوا جميعاً «من دروز ونصاري ومتارلة واسلام المروفين بجبل لبنان» ذوي «قول واحد ورأي واحد»^(٣)

وفي ٨ حزيران ، اذاع الثوار نداءً الى جميع مواطنيهم يدعونهم فيه لقتال المصريين، وسنعود بعد قليل الى مضمون هذا النداء الذي يصح ان يعدّ دستور الثورة اللبنانية . وتتابعت المناوشات بين الثوار اللبنانيين والجنود المصريين . وكثر عدد الاولين واتّسمت الحركة الوطنية . فأرسل محمد علي حفيده ، عباس باشا ، الى لبنان على رأس ١٢ الف رجل ، فوصلت هذه القوة الى بيروت في

(١) سليمان ابر عز الدين : ابراهيم باشا في سورية ، بيروت ١٩٢٩ ، ص ٢٦٠

(٢) اسد رستم : الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ٥ : ١٨

(٣) رستم : ك.م. ١٠٥٠

٢٧ حزيران ١٨٤٠ . وجاء عثمان باشا من شمالي سورية الى بعلبك بقوة مثلها . وكان في الوقت نفسه سليمان باشا يهاجم الجبل من جهة السواحل بنحو عشرين الف جندي^١ . فكانت الحملة شديدة الوطأة ، لا سيما وان سياسة الامير بشير الموالية لابراهيم باشا ، وسياسة التفريق المذكورة قبلاً بين النصارى والدروز كانتا قد اوجدتا الانقسام بين اللبنانيين . اما الثوار فانهم ، بالرغم من هذا الضعف ، كادوا يفوزون على جنود عثمان باشا في البقاع ، وعلى جنود عباس باشا في ضواحي بيروت . ولكنهم فشلوا في سنّ القيل (ضواحي بيروت) فاضطربت الحال بينهم وتمشوا . وفي ٧ آب تمكن الجند المصري من القاء القبض على ٥٧ شخصاً من الامراء والمشايع وسائر الاعيان فأبعدوا الى سائر (السودان) .
وجرد اكثر اللبنانيين من سلاحهم^٢ .

ولكن انتصار ابراهيم باشا كان وقتياً . فان مؤتمر لندن لمثلي انكلترة والنسبة وبروسية وروسية كان قد قرّر ، في ١٥ تموز ١٨٤٠ ، ان يوجه الى محمد علي انذاراً بوجود الانحطاب بجيوشه الى مصر في مهلة عشرة ايام . وعندما مرّ الموعد المضروب دون ان يتخذ المصريين مطالب الدول انتقلت هذه الى العمل ضد محمد علي ، فأرسلت انكلترة سفنها الى شواطئ الشرق الادنى واذاع السير شارل نايبير نداءً الى جميع السوريين واللبنانيين يدعوهم فيه الى الثورة . وبما قاله :
« يا اهالي جبل لبنان ، انكم بنوع خاص تشلون نظرنا . انهضوا والقوا عنكم النير الذي يزعجكم . ان الساكر والسلاح والذخائر سوف تأتيكم من الاستانة ولا خوف بعد الآن على شرائطكم من المراكب المصرية . »^٣
وفي ١١ ايلول نزل في جونبة عشرة آلاف رجل يقودهم السير شارل نايبير ، فاتحد بهم الثوار اللبنانيون ، وقد عادوا الى القتال عند وصول النجيدات الاورورية والعمانية ، واخذوا يهاجمون الجيش المصري في واقعه التي كثرت في الجبال على اثر فوزه الاخير . فقسم ابراهيم باشا جنوده في لبنان الى ثلاث فرق : سارت

(١) سليمان ابو عز الدين : ك . م . ص ٢٦٥

(٢) سليمان ابو عز الدين : ك . م . ص ٢٦٩

(٣) Souplain. *La Question de Liban*, Paris, 1908, p. 227

الاولى تحت امرته نحو بيت شباب الثائرة ، وبعيت الثانية تدافع بقيادة سليمان باشا عن بيروت ، وتمركزت الاخيرة - وعلى رأسها عثمان باشا - في ميروبا ، قاصدة ان تحول دون اتصال ثوار كسروان بالشواطىء . فهاجم الثوار ، يقودهم الامير بشير ملحم (نخيم الامير بشير الحاكم) ، عثمان باشا واضطروه للفرار بفرقة الى بعلبك . ثم قاموا بمركبة التفاف قطعت ابراهيم باشا عن نجدات كان ينتظر قدومها من البقاع ، فتمسكن العثمانيون بقيادة السرشارل نابيير ان يهاجموا القائد المصري الاكبر . واضطر هذا الاخير ان ينسحب بدوره الى جرود كسروان فالى بعلبك (١٠-١١ تشرين الاول) . وعلى اثر هذا الفوز استولى الانكليزي على بيروت^{١١} . وفي ١ تشرين الاول ، عند انتهاء مهلة اعطاها الحلفاء لتسليم الامير بشير الكبير (نما سوف نورد اليه) ، صدر فرمان بتعيين الامير بشير ملحم حاكماً على لبنان ، وقد عرف الحاكم الجديد باسم بشير الثالث او « بشير يوطحين » . وتقدم الامير بشير الثالث على رأس رجاله الى حمانا يراقب حركات الجيش المصري المحتشد في زحلة والبقاع . ولكن المصريين لم يحاولوا مهاجمة لبنان واخذوا ينسحبون . فبلفت الثورة اللبنانية غايةها الاولى .



روينا اعمال الثورة باختصار كلي محيلين الراغبين في اطلاع واسع على تلك الحوادث الى المؤلفات المذكورة في حواشي هذا المقال . وانا زيد التوقف قليلاً للنظر في ميّزات تلك الثورة :

ان ثورة ١٨٤٠ عدة ميّزات على ما تقدّمها في لبنان من حروب اهلية : فيها تدخل ممثل الدول الاروروبية بصورة علنية وباجتهاد متواصل ؛ ولا غرو في ذلك فان الثورة اللبنانية تولف حادثاً من حوادث المشكلة المصرية التي كادت تقضي على التوازن الدولي في القرن الماضي . بل ان الثوار اصبحوا ، ابتداءً من ١٢ آب (تاريخ ندا . نابيير المذكور اعلاه) ، احدى الفرق المنتسية الى الحلفاء في قتال المصريين .

وفي ثورة ١٨٩٠ ، كثر ايضاً ، خلافاً للسابق ، تدخل الاكليروس اللبناني في مراحلها. فقد كتب الثوار في اوائل حزيران يستطفون البطريرك الماروني^{١١} ، ثم اصدر سليمان باشا انذاراً يحذّر فيه الرهبان من قبول الثوار في اديرتهم^{١٢} . وفي ٢٠ حزيران كتب اسقف صيدا الى البطريرك متخوفاً من خراب البلاد على اثر «اجتماع الناس ضد خاطر ولي الامر» ، ملتسماً من رئيسه الروحي ان يجمع الاساقفة وسائر الاكليروس لينصحهم بأن يملوا ما يطمئن الافكار ويوقف الفتنة^{١٣} . وقد تدمر الامير خليل ، ابن الامير بشير ، من موقف الاكليروس الماروني في كسروان وارسل من ينذر البطريرك بوجوب تغيير الكهنة في غزير وجوارها^{١٤} .

وامتازت الثورة المذكورة بصفاتها الشعبية . وقد اصاب بولس نجيم عندما وصفها بأنها « قومية وشعبية »^{١٥} . ومن تدابير القائمين بها ما يجوز ان يُحصى بدءاً في لبنان الاقطاعي ، فيملن ندا . ٨ حزيران انتخاب جمعية مؤلفة من خمسة اعضاء . يمثلون جميع النواحي « ويمتدون كلهم او بعضاً مجلماً في مكان مناسب للاتفاق على وضع ادارة منظمة » . ثم يقول : « ويتقني (مجلس الاعضاء . الخمة) عشرة آلاف من رجالنا البواسل لمقاومة كل الدسائس والحركات المدائية المددة نحو حريتنا وتخص الضرائب — التي كان في نية الحكومة استيفاؤها من الذين كانت تريد تجنيدهم لو لم ننفض عليها — لثراء المون اللازمة للثورة آلاف مقاتل »^{١٦} . وقد اظهرت تلك الحوادث ابطالاً شهيدين كالشتيري ، وايي سراً غانم ، وشبلي العريان ، واحمد داغر . فتكون الثورة اللبنانية قد جمعت في رأسها سلائل البيوت الاقطاعية وابناء الطبقات الشعبية ، متخذة صبغة قومية

(١) ادرسم : الكتاب المذكور ٥ : ٢٤

(٢) ادرسم ك . م . ٥ : ١٠٢

(٣) ادرسم ك . م . ٥ : ١١٧

(٤) ادرسم ك . م . ٥ : ١٥٢

(٥) Jouplain, *op. cit.* p. 219

(٦) من ندا . ٨ حزيران — انظر « مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية »

لغيب وفريد المازن ١ : ٤٤ ؛ وادرسم : ك . م . ٥ : ١٠٢

وهي الميزة الاثيرة والكبرى .

☞

فلنا مع بولس نجيب ان ثورة ١٨٤٠ حركة « قومية وشعبية » ، وبالصفة الاولى قد امتازت ، لا عمّا تقدمها من الحروب في لبنان ، بل عمّا جرى من الحوادث في الشرق الادنى في القرن التاسع عشر :

اذا شئنا ان نبحث عن غاية وطنية — حقيقية او مصطنعة — لقادة الشؤون في الحروب التي جرت بين محمد علي والدولة العثمانية ، وفي الثورات التي قامت خارج لبنان بوجه ابراهيم باشا ، لن نعثّر عمّا نطلبه . فان ابراهيم باشا ، عندما هاجم « الاقطار الشامية » في سنة ١٨٣١ ، اذاع انه قادم باسم السلطان العثماني نفسه ليقتص من عباده باشا والي عكا . ولما سأل إمامُ دمشق هل يجب ان يوضع اسم محمد علي مكان اسم الخليفة محمود في صلاة الجمعة ، امر ابراهيم باشا بتأديب الامام السائل^(١) . ويقول محمد علي في رسالته الى ملك فرنسا المؤرخة في ١١ تشرين الثاني سنة ١٨٤٠ : « ان جميع اعمالنا صدرت عن حيي لوطني فقد كنت تمكنت بعد ماعر جام... من توطيد الراحة في سورية... ان وجود سورية بيدي لعامل قوي يمكنني من مد يد المساعدة الفعالة لجلالة السلطان ولتركية... فان مساعي الذين توهموا انهم يعملون على ضمان سلامة كيان السلطنة العثمانية بتجريض احدي ولاياتها على العيصان لم تؤزل الى تحريك كل البلاد بل الى ايقاد نار الحرب الاهلية . »^(٢)

اما الوطن الذي يذكره في بدء الرسالة ، فلا تعريف له . أتكون سورية التي احب الخديوي المصري ضمان واحتمها ؟ أتكون تركية وقد حاربها ليد لها يد المساعدة ؟ أتكون مصر ، مصدر تلك الحركة ؟ والحق يقال ، ان محمد علي لم يكن يعرف سوى « مصالح الشخصية ومصالح اسرته » التي يتحدث عنها في الرسالة نفسها وليست مصر في نظره سوى « إيالة » عثمانية استولى عليها . ويؤد ان تقع سلطته الى سائر « الإيالات » العثمانية ، وربما طمع بالخلافة

(١) Poujoulat, *op. cit.*, p. 313

(٢) ف. ف. المازن ك. ٢ . ص ٦٤

الاسلامية. أما الوطنية والقومية، كما نعرفها، فلم تخطرا له ببال، كما لم تخظرا ببال اعدائه اسياذ السلطنة العثمانية .

فلنعد الآن الى الثورة اللبنانية ولنطالع نداء ٨ حزيران المذكور سابقاً ، ومطالب الثوار، وجواب فريق منهم على سؤال وجهه اليهم الامير بشير الكبير . ان نداء ٨ حزيران قد طُبع اولاً مترجماً الى الفرنسية في الجزء الثالث من « مجموعة معاهدات الباب العثماني » (باريس ١٨٦٥) للبارون ده تستا^(١). وفي هذه النشرة وردت التعابير التالية « الى المواطنين الاعزاء . . . انفة اللبنانيين وروح الاستقلال . . . حفظ شرفهم (اللبنانيين) وكيانهم » ولكنها غير واردة في نسخة عربية وجدها الدكتور اسد رستم في دار القنصلية البريطانية في بيروت فشرها في « الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا »^(٢) وعلى كل فان النداء يحمل على الحكومة المصرية لاعتدائها على حرية اللبنانيين، وارهاقهم بالضرائب ، والقاء الفتق فيما بينهم ، وتجريدهم من سلاحهم بواسطة الخداع ، وتجنيدهم فريق منهم . وبدء القاتلون بالثورة مواطنيهم الى الاتحاد والعمل السريع لمقاومة « العبودية » ، ذاكرين مثل « الفرنسيين الذين عندما هددوا بالاستئصال اذا لم يتسلدوا فخانوا الموت فخاذوا غمرات الوغى وكسروا ١٥٠ الف رجل »^(٣) ، ويختمون — بعد تنظيم جمعية ثورية كما رأينا اعلاه — قائلين : « وقد سبقتمكم الاروام على القيام وحصلوا على الحرية المطلقة من الله . » وفي الجملة الاخيرة تذكير بثورة اليونان (سنة ١٨٢٨) التي ادت بتلك البلاد الى استقلالها التام . ولا ننسى ما جاء في بدء المنشور من التمييز بين الحكومة المصرية التي قام الثوار يحاربونها وبين الامير بشير وقد سكت اللبنانيون ، حتى ذلك التاريخ ، عما اصاحم « لاجل طاعتهم لسعاده » . بل انظر الى مطالب الثوار اللبنانيين كما قدموها الى الامير امين ، ابن الامير بشير :

(١) Jouplain, op. cit., p. 288 : طالع تعريب النشرة في الحازن : ك . م . ص ٢

(٢) رستم : ك . م . ص ٥٠ : ١٠١

(٣) في نشرة « المحررات السياسية » وردت عبارة « قتلوا » بدلاً من « كسروا » التي فضلتها وقد جاءت في نشرة الاستاذ رستم . ولا ندري الى اية حادثة اشار كاتب النداء .

بقا. سلاحهم في ايديهم وعدم تجنيدهم ، وتنظيم جباية الضرائب وانشاء « ديوان مشورة » في بيت الدين لتسهيل البلاد ، وابعاد الشاعر بطرس كرامه عن ديوان الامير^(١) .

اماً الطلب الاول فهو يهتم كرامة البلاد . وفي الطلبين التاليين رغبة في التنظيم المالي والحكومي جديدة بالانتباه . واما الطلب الاخير فانه يهتنا في هذا المقام لأنه يرمي الى جعل ديوان الامير وطنياً صرفاً ، بعيداً عن تأثير الشاعر الحمصي ، خليفة آل البحري اعوان الحكومة المصرية .

ولما اراد الامير بشير ان يقنع الثوار بالعودة الى الهدوء ، فارض اهل الشوف واستوضح . ووقفهم من الحكومة والثائرين فاجابوا انهم « بقلب واحد درزي ونصراني » ، وانهم لا يطمون سلاحهم ولا يقبلون بالجندية ، ولا يسعون للجنود المصري بدخول البلاد ، ولا يجارون احداً من مواطنيهم الا اذا كانت غايته مقاتلة الامير الحاكم^(٢) .

اذا لم يعد من ريب في ان غاية الثورة اللبنانية كانت اولاً وآخراً مقاومة الحكومة المصرية واستبدالها بالوطنيين ، والدفاع عن كيان لبنان وحرياته . فاین هذه النفحة الوطنية تصدر من شعب صغير فقير في اواسط القرن التاسع عشر من روح محمد علي واعدائه العثمانيين كما تراءت لنا في الاطر السابقة ؟ اماً الامير بشير ، فان الثوار ظلوا محترموه حتى آخر لحظة من وجوده في وطنه . ولا غرور في ذلك ، فكان قد مضى عليه نحو ٥٢ سنة وهو على رأس البلاد يحافظ على كرامة شعبه الصغير ، ويوفر له الامن وسائر اسباب النجاح . فكيف ادت ثورة ١٨٤٠ الى خلع الامير ونفيه ؟ نضل هنا الى الحوادث التاريخي محور مقالنا ، فنرى موقف الامير من الثورة وظروف استلامه الى الاميرال الانكليزي .



(١) ابو عز الدين : ك . م . ص ٢٦٤

(٢) ابو عز الدين : ك . م . ص ٢٦٨

ان الثوار ، في نذرهم المشهور ، قالوا انهم سكتوا حتى الآن عن الحوادث
 انواع الظلم التي لحقها المصريون ببلادهم ، اكراماً للامير بشير الذي
 « امنهم وطمنهم بالراحة وبعدم الزود عليهم » ، ولكن حكومة ابراهيم باشا
 « غدارة وخداعة احتسبت خداسة سعادته كلاشي . بل اظهرت له النفور في
 ترسوس كما قد يبلغ البعض لما اعتذر عنهم » .

ترى ، ماذا جرى في طرسوس ؟ لا نعرف عن تلك الحادثة غير ما جاء في
 الجلمة المذكورة ، وفنتج منها ان الامير شمر بالضم اللاحق برعاياه فنبه عليه
 ابراهيم باشا فام يأت التنبه بالنتيجة المتوخاة . وفي ١١ حزيران كتب قنصل
 روسية الى حكومته يقول : « لقد لفحت سموم الفتنة في لبنان من جراء
 اصدار ابراهيم باشا امره بتجريد الموازنة من اسلحتهم رغمًا عن توالي نضاح
 الامير بشير له بتحامي جميعها^{١١} ثم انه على اثر مهاجمة الاسطول الانكليزي
 لبيروت وتراكنش اللبنانيين الى جونه لاستلام السلاح من ايدي الحلفاء ، استدعى
 ابراهيم باشا الامير بشيراً الى مقابلته في بعلبك وسأله رأيه في الحالة ، فأشار
 عليه بإعادة سلاح اللبنانيين اليهم وبإعادة ما جبي منهم سابقاً باسم ضريبة
 « الاعانة »^{١٢} .

في ما تقدم يظهر لنا الامير الكبير كأنه يعطف على شعبه ، ويود ان يحفظ
 من آلامه ويحافظ عمّا تبقى له من كرامة . ولكنه يصطدم بإرادة حليف قدير
 لا يحفظ عهداً ولا يرحم مخالفاً ، فيبان في طرسوس ولا يُستمع الى نضاحه .
 وهو يريد ، قبل كل شيء ، ان يحافظ على علاقاته الطيبة بابراهيم باشا فيسكت
 عن هذا الاستبداد ، ويقاوم رعاياه في ثورتهم على الحكومة المصرية ، بل يبائع
 في الاخلاص لهذه السلطة فيأمر حفيديه بالتوجه الى صيدا للإتيان بالجوزد
 المصريين الى بيت الدين^{١٣} . وفي طلبه الاخير بقلّ وطنية عن محكوميه وقد

١١ المازن : ك . م . ص ٥

١٢ الشدياق : اخبار الاعيان في جبل لبنان ، ص ٦٠٤

١٣ الشدياق : ك . م . ص ٥١٥

وأرناهم يعلتون ، في ساعة واحدة ، اخلاصهم لاميرهم وارانتهم في منع الجيوش المصرية من دخول بلادهم . وقد افترط في اخلاصه هذا - او بالاحرى في تظاهره بالاخلاص - فكتب الى القائد المصري عثمان باشا طالباً منه ان ينهض بفرقة الى المتن^١ . بل لتقرأ نثره الامير بتاريخ ٣ ايلول سنة ١٨٤٠ :

« ان وصول الانكليز الى تفر بيروت غايته خدعكم واخذكم بالحيلة لأضلالكم . وعليه فكل من قبل منهم كتابات ترمي الى التحريض على الثورة يجب عليه ان يسلمها لارلاي الامراء . حتى اذا لم يفعل عوقب بالموت .

« وكل من يأخذ منهم سلاحاً او ذخيرة او وثقة دون اذن من حكومتي ، فعقابه الموت . وكل من يضيف الجواسيس الذين يأتون للحض على شق عصا الطاعة او يضمنى اليهم فعقابه الموت ايضاً . . . »^٢

ولكن خطأ الامير الاكبر كان في مساعدته لابراهيم باشا على القا . بذور الفتنة بين الطوائف اللبنانية . ففرق الحليفان بين النصارى والدروز عند تزعم السلاح في سنة ١٨٣٥ ، وقاد الامير رعاياه النصارى في سنة ١٨٣٧ الى حوران لقمع ثورة الدروز . ثم عاد في سنة ١٨٤٠ ، في اثناء الثورة اللبنانية ، يدعرو الدروز الى التخلي عن الثوار المسيحيين . ويعدمهم ، لقاء عودتهم الى السكينة ، بتخفيض الضرائب واعفائهم من التجنيد والسخرة^٣ . فتوقف قليلاً وكان توفيقه ويلاً على شعبه .

هكذا كان موقف الامير مضطرباً بين واجب الامانة نحو شعبه اليانس النائر وبين ارادة ابراهيم باشا ، عندما تراجع المصريين عن لبنان على نحو ما رأينا . فاتصل به الاميرال ستوفورد ، قائد الاسطول الانكليزي ، طالباً اليه الانضمام الى الحلفاء . وقيل ان الامير وقع عهداً يعترف فيه بسيادة الخليفة العثماني ، ولكنه كان لا يزال ، في الايام الاولى من تشرين الاول ، وانقاً بقرة محمد علي وبنجدة فرنسة ، فتردد في قطع علاقاته بالمصريين وانتظر بضعة ايام رغم

(١) الشدياق : ك . م . ٥٦٤٠

(٢) الحازن ك م ص ٢٠

(٣) Poujoulat, op. cit., p. 564-595

وعد الانكليز بالاعتراف به اميراً مستقلاً وراثياً على لبنان . فأعطي مهلة ثمانية ايام انتهت في ٩ تشرين الاول دون ان يعطي جواباً على الانذار . فأعلن الفرمان السلطاني القاضي بنزله وبتولية الامير بشير الثالث مكانه . وكان بشير الكبير قد قطع الامل من حلفائه ، فأودع بعض مواده الثينة في اديرة مختلفة ، وترك بيت الدين في ١٠ تشرين الاول ، يرافقه زوجته ، وابناؤه الثلاثة ، وحفيد له ، ومدبره ، وبعض الاعيان ، ومعه خزينته التي قدر الشدياق انها تحوي « ثمانية عشر الف كيس من النقود الذهبية القديمة . »^(١) وبات الامير الراحل ليلاً في الاولي ، قرب صيدا ، ولماً علم متسلم المدينة المذكورة بقدمه نصب له الحيام ، واستقبله بكل اكرام ، وادى له الجند التحية الرسمية على عزف الموسيقى ، ثم توجهت به الباخرة الانكليزية الى بيروت حيث سُئل ان يختار مكاناً لمنفاه في اي بلد يشاء خارج مصر وفرنسة . فاختار مالطه وركب الباخرة ، بعد خمسة ايام ، برفقة زوجته ، واولاده ، واكثر احفاده ، ومدبره بطرس كرامه ونحو سبعين رجلاً من حاشيته . وسافر الى الجزيرة المختارة فاشتهر بلقب « المالطي » ، وتلك كانت تالفة الاثاني . . .

وبعد ان مكث احد عشر شهراً في مالطة طلب ان ينتقل الى الاستانة فأذن له . فقدم العاصمة الكبرى وعاش فيها الى ان توفي في ٣٠ كانون الاول سنة ١٨٥٠ ودُفن في كنيسة الارمن الكاثوليك .



ان الكثيرين قد استغربوا تردد الامير الكبير في الدفاع عن كيان شعبه ، بعد إخلال ابراهيم باشا بهورده ، ونحصرهاً تردده في قبول الانضمام الى الحلفاء . بعد ان وعدوه بالامارة الوراثية على لبنان مستقلاً .

والاستغراب في محله . لكن يجب ان لا ننسى ان الثورة اللبنانية وقمت في العام ١٨٤٠ ، اذ كان قد اصبح عمر الامير اثنتين وسبعين سنة ، وكان يحكم بلاده منذ اثنتين وخمسين سنة . فكان قد تعب ، لا سيما وفي ايام

حكّمه كثرت المشاكل والمهروم . بقي في البد . أكثر من خمسة عشر عاماً في حروب أهلية دائمة مع انبثائه مزاحمه على الامارة ، فيفتر تارة من لبنان ، وطوراً يقع اسيراً في ايدي الجزائر . فأصبح الحذر مبداه ، وما سياسته في العهد المصري الا سياسة حذر دائم ، وقد رأيناه في آخر دقيقة ، عندما اراد مناداة بيت الدين ليلأم نفسه في حيدا ، « يظهر لبحري بك انه متوجه الى الشوف لجمع الرجال »^(١) . هي صفحة مؤسفة من تاريخ الامير الكبير .

ومن الحق ان نعترف لبشير بانه في السنين الاخيرة لم يعد المسؤول الوحيد عن حكمه . فقد كان ، كما قلنا ، تعب من الاشغال ، فسلم الامر لابنه الامير امين^(٢) . وكان هذا الاخير تلميذاً للشاعر بطرس كرامه وصديقاً حميماً له . أما بطرس كرامه فكان غريباً عن لبنان ، ونسبياً لآل البحري معاوي ابراهيم باشا . وصادف تعيينه مديراً للامور (١٨٢٨) المدة التي كان الامير يجهّد فيها السيل للفتح المصري ، فكان عيناً للحكومة المصرية على البلاط اللبناني . ومن يقرب صفحات المصادر التاريخية لذلك العهد يجد الامير امين المذكور ، متولي الامر من قبل ابيه ، وصديق بطرس كرامه ، أكثر الامراء تقرباً الى السلطات المصرية . فكثيراً ما نقرأ في « اخبار الاعيان » للشدياق ان ابراهيم باشا « كتب الى الامير ان يرسل له ولده الامير اميناً فأرسله » ، او « فار الامير امين . فاستقبله الوزير احسن استقبال »^(٣) فلا غرر اذا عرف الثوار بتأثير الشاعر بطرس كرامه على ولاة الامر الوطنيين تأثيراً مضرّاً بمصلحة البلاد فطالبوا بإبعاده عن بيت الدين . وكانت آخر نصائح المدير الحصري اشارته على الامير بعدم التسليم للإنذاز الانكليزي ، فضاغت فرصة ثمينة لجعل الحكم وراثياً في لبنان ، وبالتالي مستقلاً عن كل نفوذ خارجي .



(١) الشدياق : ك . م . ص ٦١٠

(٢) الشدياق : ك . م . ص ٥٦٢

(٣) الشدياق : ك . م . ص ٥٧٥ ، ٥٧٨ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣

الناليج ان طول العهد الذي حكم فيه الامير بشير جعل منه سلطة اديبة لا تُتَازَع . لنطالع كل ما قيل وكتب في اضطرابات لبنان على اثر احتلال المصريين لأراضيهِ ، فلا نعثُر على جدال في حق الامير بالولاية . وقد رأينا الثوار يميزون بين الحكومة الاجنبية التي قاموا بمحاربتها وحليفها الامير بشير فيكرمون هذا الاخير ويضمون شخصه خارج النزاع .

فلما انتارت هذه الشخصية سقط معها صرح الوحدة اللبنانية . وكانت الدعايات الاجنبية على اختلافها ، في السنين الاخيرة من ولاية بشير الكبير ، لم تغفل عن طريقة في هدم هذه الوحدة . وبينما كان اللبنانيون في حروبهم الاهلية الماضية ينقسمون الى حزبين ، جنلاطي ويزبكي ، فيؤيد كل من الفريقين ترشيح امير شهابي لتسلم الاحكام ، ولا يعرفون للطائفية معنى ، حتى ان امير لبنان كان يدعى في القراءات الرسمية « امير الدررز » ، وغالباً ما كان مسلماً سنياً او نصرانياً دون ان يتم بالامر احد من رعاياه — بينما كان اللبنانيون في الماضي لا يثورون على الحاكم الاوقد . رشعوا للجلوس مكانه اميراً شهابياً ثانياً ، اذا بهم ، بعد سقوط بشير الكبير ، ينقسمون طوائف ويمجادون في نظامهم التاريخي . فيطلب النصارى ان يكون حاكم لبنان اميراً مسيحياً ، ويعلم الدررز انهم غير راضين عن تعيين الامير بشير الثالث حاكماً لأنه مسيحي^{١١} . فلم يطل اجل ولاية الامير بشير الثالث ، وكثرت المناوشات الدامية بين ابناء الوطن الواحد ، فأعيد النظر في وحدة الاراضي اللبنانية ، تلك الوحدة التي نابر اسرارنا على تأليفها والمحافظة عليها مدة قرون ، تقسم لبنان الى قائميتين ، درزية ونصرانية ، فمجت وتوقع حوادث ١٨٦٠ .

وتداعى في الوقت نفسه نظام لبنان الاقطاعي ، وكان الامير بشير الكبير قد ضربه الضربة الاولى بإياعده اكثر ابناء الاسر الاقطاعية عن حكم اراضيها . فلما ارتحل الامير عن البلاد ، ظن هؤلاء انهم يعودون الى سالف مجدهم ، ونسوا ان الشعب ، وقد شاهد سقوط اعظم سلطة عرفها منذ قرون ، لن يدهم بحكمونه كما في السابق . فكانت حوادث سنة ١٨٥٨ .

وفي وسط تلك الانتميارات الهائلة التي شهدها هذا الوطن الصغير على اثر نفي الامير ، بقيت سلطة واحدة لم يكن لها شأن سياسي يُذكر في عهد الامارة ، فكثرت الدوران حولها في ايام الثورة على ابراهيم باشا ، وكان لها قسط في قلب النظام الاقطاعي ، حتى اذا خلت البلاد من سلطاتها التقليدية ، الامراء واصحاب الاقطاع ، برزت الى الوجود تعمل في سبيل لبنان وتحافظ على ما كان في الامكان المحافظة عليه ، هي البطورية المارونية .

☞

انطوى ، بنفي الامير ، فصل من تلخيخنا بدأه فخر الدين في سبيل توحيد لبنان ، وواصل خلفاء فخر الدين عمله حتى كانت فرضى ١٨٤٠ ، فظن الكثيرون انه نُضي على هذا الوطن الصغير . ولكن العالم شهد بأنه لا بد من الوحدة اللبنانية لتوطيد الامن واسباب المدنية في الشرق الادنى ، فتدخلت الدول العظمى ، في سنة ١٨٦١ ، لتضمن لنا الراحة والطمأنينة ، ووضعت النظام الذي عاش حتى سنة ١٩١٥ . فقام ابنا لبنان ، في ظل ذلك النظام — وبالرغم من الهزات العنيفة الدامية التي مرت عليهم على اثر المقاومة المصرية وما لياها من بتر وطعنهم — بشاريع عمرانية واعمال تقافية خلدت لهم ذكراً في انبعاث الشرق .

ومن الحوادث التي رأيناها نحفظ امرين ، اولها ان بشيراً اوشك ان يضع ببضع سنوات ما كان قد بناه هو وآبازه مدنة قرون ، لأن الجراءة تقصته في علاقته بالخليف المصري ولأنه استسلم لآراء مدير غريب عن البلاد وشورها . اما الامر الثاني فهو ما جاء في كتاب رفعة ممثل روسية في بيروت الى حكومته في ١١ حزيران ١٨٤٠ : « وكما ان انضمام اللبنانيين الى جيش ابراهيم باشا ، في سنة ١٨٣٢ ، قد جبر معه خضوع كل سورية ، فلا يبعد ان ثورتهم اليوم ستؤول الى طرد المصريين نهائياً من هذه البلاد . »^١ وتعاقت الايام محققة ظن الكاتب في قافية هذه الامة الصغيرة في احداث الشرق الادنى .